(٤)

كبـــر كـــاذب

الحديبية مكان قريب من مكة المكرمة ، بينه وبين مكة نحو يوم واحد بسير الراكب ، أو نحو مرحلة واحدة . وقد سميت باسم بئر كانت هناك ، وقيل سميت بالحديبية لأنها كانت فيها شجرة حدباء . وأكثر الحديبية في الحرم[1]. وقد نزل رسول الله ﷺ وأصحابه فيها على بئر قليل ماؤها ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، وكان اليوم شديد الحر ، فاشتكى الناس إلى رسول الله العطش وقلة الماء ، فأتاهم النبي ﷺ ، فجلس على حافة البئر ، ثم دعا بإناء فتوضأ فيه ثم مضمض ودعا ، ثم صب الماء في البئر وانتزع سهماً من كنانته فأعطاه ناجية بن الأعجم ، رضي الله عنه ، وأمره أن يثير بالسهم ماء البئر. قال ناجية بن الأعجم « ففعلت ، فوالذي بعثه بالحق ما كدت أخرج حتى يغمرني (أي الماء) وفارت كما يفور القدر ، حتى

---

(١) المقصود بالحرم هنا الحرم بمعناه العام ، وهو مساحات تحيط بمكة من جميع نواحيها عليها أعلام في بداية كل منها تحدد (حدود الحرم). وليس المقصود الحرم المكي بالمعنى الخاص وهو المسجد الحرام .

طمَّت (ارتفع ماؤها) واستوت بشفيرها (بلغ الماء أعلاها)... حتى نهلوا عن آخرهم (أي ارتووا جميعاً)»[1] وأصحاب رسول الله يومئذ نحو ألف وأربعمائة أو ألف وخمسمائة ! وكان على الماء يومئذ نفر من المنافقين فيهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، فقال له أوس بن خَوْليٍّ ـ رضي الله عنه ـ «ويحك يا أبا الحباب! أما آن لك أن تبصر ما أنت عليه؟ أبعد هذا شيء». أي إلى متى تبقى على نفاقك وأنت ترى الآيات الدالة على صدق محمد ﷺ ، أليس هذا الأمر الخارق لكل عادة كافياً لتؤمن إيماناً حقيقياً وتخلص من نفاقك القبيح؟ وهي كلمات لو قيلت لذي قلب يعقل لدلَّتْهُ على طريق الهدى ولَرَدَّتْهُ عن سبيل الضلال الذي كان فيه عبد الله بن أبي . لكن المنافقين ﴿ **لَا يَفْقَهُونَ** ﴾ (المنافقون:٧) و ﴿ **لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (المنافقون:٨) .

فقد رد عبد الله بن أبي على أوس بن خوليٍّ بقوله:« إني قد رأيت مثل هذا»!!

فأجابه أوسٌ بقوله: «قبَّحك الله وقبَّح رأيك»!

وذهب عبد الله بن أبيّ إلى حيث كان يجلس رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ـ وهو لم يكن بحيث يسمع حواره

---

(١)رواه البخاري وغيره من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، السابق تخريجه .

مع أوس بن خوْليّ - «أي أبا الحباب : أين رأيت مثل ما رأيت اليوم؟»

قال عبد الله بن أبي : «ما رأيت مثله قط !»

قال رسول الله ﷺ : «فَلِمَ قُلْتَه ؟ !»

قال ابن أبيّ : «يا رسول الله استغفر لي» وفي رواية أنه قال «أستغفر الله».

وقال ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ - رضي الله عنه - «يا رسول الله استغفر له». فاستغفر له رسول الله ﷺ.[1]

إن هذا الرجل ، ونظراءه من المنافقين ، لم يمنعهم من صدق الإيمان بنبوة محمد ﷺ أنهم لم يروا الآيات الدالة على هذه النبوة ، ولا أنهم لم يفهموا القرآن العربي الذي كان ينزل عليه فيتلوه على الناس - وهم منهم - ولا أنهم كانوا يرونه ساحراً أو كاهناً أو شاعراً ، كما كان بعض الحمقى من قريش ، ومن والاها ، يزعمون في أول البعثة النبوية ، ولكن الذي كان يحمل هؤلاء الذين «مردوا على النفاق» ، من أهل المدينة ، على نفاقهم كان نوعاً من الكبر الكاذب ملك عليهم نفوسهم : أنهم يكونون أعظم ، في نظر الناس ، وأعلى مكانة ،

(١) الصالحي ، السابق ، ص ٦٨ .

إذا أعلنوا مخالفتهم لما عليه عامة أهل المدينة من اتباع محمد والإيمان به ، والنزول على حكمه ، والانقياد لأمره ونهيه .

وقد أوردهم هذا الكبر الكاذب موارد الهلكة ، فقد كانوا ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ (النساء:١٤٢) ووصفهم القرآن الكريم بأنهم : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (التوبة:٦٧) ولم يكونوا يَخْفَونَ على الله تبارك وتعالى ، بل كانت حالهم بينة ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ (العنكبوت:١١) . وأمر القرآن الكريم رسول الله ﷺ أن يبشر ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء:١٣٨) وأخبر القرآن الكريم عنهم أنهم : ﴿ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (النساء:١٤٥) وكفى بذلك خزياً وسوء مصير .

وقد نبأ القرآن الكريم رسول الله ﷺ بأن الذي يحمل المنافقين على ما يفعلون هو ذلك الكبر الكاذب ، فقال ربنا سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (غافر:٥٦) وهذه الآية مدنية ـ كما قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره ـ فهي تتناول كل من جادل في

آيات الله بغير سلطان من أهل المدينة من اليهود والمنافقين ، وقيل : كل من كفر بالنبي ﷺ ، قال القرطبي : « وهذا حسن ». والمقصود بالسلطان هو الدليل والبينة التي تنهض حجة لصاحبها وشاهدةً على صحة قوله أو معتقده . وهيهات أن يجد هذا الدليل أو تلك البينة المنافقون وأشباههم أو أتباعهم، لا في زمان النبي ﷺ وحده ، بل في كل زمن ومكان .

ولا شك أن الكبر في المنافقين أظهر منه في سواهم بدليل استكبار رأسهم عبد الله بن أبي عن التسليم للآية الظاهرة في فوران ماء البئر وزيادته أمام عينيه وقوله كذباً « قد رأيت مثل هذا ». كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً. وانظر ـ مع ذلك كله ـ إلى قول جابر بن عبد الله ، رضي الله عنه ، لمن سأله: كم كنتم؟ قال « لو كنا مائة ألف لكفانا(!) كنا خمس عشرة مائة »[1] ، تعرف الفرق بين يقين المؤمن وريبة المنافق .

* * *

(١)متفق عليه من حديث جابر، البخاري برقم ٣٥٧٦ و٤١٥٢، ومسلم برقم ١٨٥٦ مختصراً .